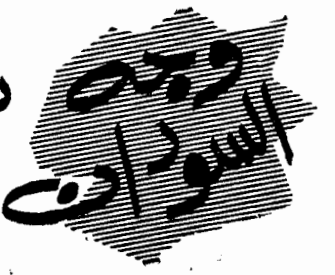

مقدمه :

الاتجاه الى تبين الشخصية الاقليمية هدف صاحب الجغرافيا من أقدم عصور حياتها مع دورات من الازدهار والذبول . تطغى عليه أحيانا أهداف أخرى تجنح بالجغرافيا الى اتجاه طبيعى أو بشرى يضطرب معه توازنها .

ونستطيع أن نرجع بهذا الهدف فى العصر الحديث الى ما استنبطه رشتوفن من وجهات نظر همبولت ورتر ، واتضحت معالمه فى كتابات الفرد هتنر منذ أواخر القرن التاسع عشر . فهو يذكر (١٨٩٨) أن موضوع الجغرافيا المميز من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر هو معرفة بقاع الأرض من حيث تباين كل منها عن الأخرى . وفى عام ١٩٠٥ عرف هتنر الجغرافيا بأنها العلم الكورولوجى للأرض، أو علم بقاع الأرض وأماكنها، أو هى علم سطح الأرض من حيث التباين الاقليمى . وقريب من هذا تعريف فيدال ديلابلاش بأنها « علم الأماكن » . وهذا المنحى يحمله الآن هارتسهورن ، فالجغرافيا عنده « علم التباين الأرضى » (١) .

واذا كان هذا التعريف هو المرفأ الذى تأوى اليه الآن سفينة الجغرافيا فى سيرها الطويل ، ومن بعده تطورت ـ شأن أى علم ـ فان الباحث العربى فى قطر عربى لايسعه الا أن يذكر فى ايجاز تقتضيه طبيعة البحث ـ مدى عناية العرب بالشخصية الاقليمية . فأكثر من كتاب عربى يدرس « المسالك والممالك » أى الأقاليم والعلاقات الاقليمية .

والأصطخرى ـ على سبيل المثال ـ لا يتقيد حتى بالحدود السياسية للقطر ويعنى بالوحدة الطبيعية ويجعل الخريطة أساس البحث ويقول « ثم أفردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم ومايقع فيه من المدن، وسائر مايحتاج اليه من علم » (٢) . وهو يعنى بالعلاقات المكانية فيقول « وقصدت من كتابى

---

* قدمت هذه المقالة فى مؤتمر (السودان فى افريقيا) الذى نظمته شعبة ابحاث السودان فى فبراير ١٩٦٨ .

١ ـ Hartshorne R. : Perspective on the nature of Geography, P. 13, Chicago, 1959.

٢ ـ الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحسينى، ص١٥، القاهرة ١٩٦١ .

هذا تفصيل بلاد الاسلام اقليما اقليماحتى يعرف موقع كل اقليم من مكانه وما يجاوره من سائر الاقاليم » (٣)

ولم تكن هذه الدراسات قائمةعلى مجرد جمع المعلومات ، وانما عنى البلدانيون العرب بالرحلةوالمشاهدة والخبرة الذاتية . وتبدو هذه الدراسة الميدانية فى احدىصورها النابضة بالحياة فيما وصف به المقدسى منهجه العلمى فى كتابه«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» ... « ونحن فلم يبق اقليم الا وقددخلناه ، وأقل سبب الا وقد عرفناه وماتركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ماعايناه والثانىماسمعناه من الثقات والثالث وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب »(٤). ويلى هذا نص أدبى رائع فى بحثه الميدانى والتجارب الذاتية التى مربها .

البحث عن الشخصية الاقليميةاذن عريق فى الجغرافيا ، عريق فى تراثنا العربى ، حتى فى الجغرافياالمعاصرة . والجمع فى هذه الدراسة بين القوانين الطبيعية والبشرية فىوحدة جغرافية متناسقة ، اتجاه يشق طريقه بقوة فى المدارسالجغرافية المعاصرة على اختلاف ايديولوجياتها ـ ويكفى فى هذا المجالأن نرجع الى الحوار الخصب الذى يدور لشأنه فى مجلتى حولياتالجغرافيين الأمريكيين والجغرافيا السوفيتية (٥) .

ومثل هذا البحث بطبيعتهبحث رقمى ـ هو ذروة سنام الجغرافيا ـ وله أبعاد متشعبة :

١ ـ له أولا عمقه التأريخىالذى يضرب بجذوره ليجمع من التأريخ النماذج الموضحة للشخصيةالاقليمية .

٢ ـ وله بعده المكانى الذىيمتد الى ماوراء حدود الاقليم ليتبين تفاعله مع الوحدات القريبة والبعيدة .. تفاعلا له طابعه على المكان ونبضاته التى تساعدنا على تحديد ملامح الاقليم .

٣ ـ وله تكامله الموضوعى ـبين مكونات الاقليم نفسه ـ وهذه المكونات نسيج من عوامل طبيعيةوبشرية . وهذا النسيج بدوره

---

٣ ـ نفس المرجع ص ١٩

٤ ـ المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفةالاقاليم ص٤٣ ٤٦ ط بريل ، ليدن ١٩٠٦ ـ اعادت طبعها مكتبة المثنى ببغداد .

٥ ـ على سبيل المثال انظر : Soviet Geography, Sept. 62 New York وبه عدة مقالات عن الوحدة والثنائية فى الجغرافية ، نقد الوحدة فى مفهوم الوحدة فى الجغرافيا .. والعدد كله مخصص لهذه المشكلة المنهجية .
وانظر ايضا بحث D.J.M. Hooson فى مجلة A.A.A. Geography عدد مارس ١٩٥٩ وعنوانه : Some Recent Developments in the Content and Theory of Soveit Geography, pp. 73—82.

متتابع الصور .. وكل صورة سبب ونتيجة .. هى جغرافيا كاملة لها تفاعلها مع ماقبلها ومابعدها ..

من هنا يبدو تركيب البحث . وتبدو أهميته فى نفس الوقت . هى صعوبة بالطبيعة . لاتملك الجغرافيا ولا الجغرافى منها مهربا . فمهمته الأولى أن يجلى الاقليم فى صورته الكاملة .

ترى هل كان أسلافنا من الجغرافيين العرب يحسون هذا عندما أطلق بعضهم على كتبه صور الأرض كالخوارزمى أو صفة جزيرة العرب كالهمذانى ؟

واذا كانت الجغرافيا عملا علميا تركيبيا .. فهى أيضا عمل فنى . فليس هناك من فرق كبير بين تحديد ملامح شخص فى لوحة فنية أو ملامح اقليم فى بحث وخريطة . فأنت فى الصورة تختار زاوية وتوزع أضواء وظلالا . وكذلك أنت فى الاقليم لا تستطيع ـ عمليا ـ أن تصل فيه الى موضوعية خالصة . بل ان الموضوعية الخالصة هنا تكاد أن تكون ضربا من المحال .. أخشى أن أقول !! .

فمهما تكن موضوعية البحث ، فلن يملك الباحث الا أن يستقطب مجموعة من الحقائق المحدودة من آلاف الحقائق .. منها مايعرف وكثير منها يجهلها .. ومن منا يعلم أكثر مما يجهل ؟ ثم يحاول بعد هذا أن ينظم هذه الحقائق المختارة من معلوماته بمنهج معين ليقول بعد هذا ان هذه « شخصية السودان » أو « وجه السودان »

ولكن لابد من محاولات فى هذا المجال .. وهى بطبيعتها ناقصة . ولن تكون الا كذلك ، متناثرة بوجهة نظر الكتاب ومدى مايتوفر بين يديه من معلومات وتقييمه لهذه المعلومات ولازالت مشكلة اختيار المادة التى تعتبر جغرافية من أعقد ما يقابل هذا العلم التركيبى فى سيره الطويل ..

ولكن مافائدته ؟

فائدته الأولى أنه فى الجغرافيا هدف وقمة . هو محاولة لتخليص شخصية الاقليم لتتجه الأبحاث بعد هذا الى زوايا يحتاج اليها ابراز هذه الشخصية . وهذه الزوايا ـ بدورها ـ تنتظمها ـ من بعد ـ أبحاث كلية تعيد تجميع الحقائق المتناثرة فى وحدة علمية فنية . وهكذا يحدث اخصاب بين البحوث التفصيلية والشاملة .. بين البعد التاريخى والواقع .. بين المحلية والعالمية .. وفى هذا عون على السير الى الجغرافيا التطبيقية والتخطيط الجغرافى .

فلتكن هذه المحاولة خطوة على الطريق . فيها كل ما فى الخطوات الأولى من تصور وأمل .

تدرج :

دولة تأتى فى الحجم أول دول افريقية بمساحة قدرها ٢½ مليون كيلو مترا مربعا . وتليها الجزائر والكونغو كنشاسا .. وهذه الثلاث فى افريقيا هى التى تزيد مساحة كل منها عن مليونين من الكيلو مترات المربعة .

الا أن الجزائر اذا كانت تجمع بين اقليمى البحر المتوسط والصحراء واذا كان الطابع الاستوائى هو الغالب فى الكونغو فان السودان يمتاز بين هذه الوحدات الضخمة بتنوع لانظير له فيها جميعا :

فهو يبدأ شمالا عند خط عرض ٢٢ شمالا من الصحراء الخالصة حيث تتركز الحياة تركزا شديدا على جانبى النيل ، ثم يتدرج الى نطاق هامشى من المطر الصيفى تتكاثف فيه الحياة على النهر ، وتتناثر فى غلالة رقيقة على جانبيه ، ثم تنضج الثنائية من الاعتماد على المطر والنهر فى السودان الأوسط حيث نطاق يعج بالحياة يمتد من أقصى الغرب حيث شواطىء المحيط الأطلسى الى اثيوبيا شرقا .. ويتعمق النيل بمنابعه جنوبا حيث منطقة السدود ثم يصعد الى الهضبة الاستوائية ومرتفعات تقسيم الماء بين النيل والكونغو ..

ففى الجنوب ـ فى أوغندة ـ منطقة من المطر الدائم ، وفى الشمال صحراء خالصة ، وبين المطر الدائم والجفاف الدائم تتدرج الحياة وتتشابك .

حجم متجمع :

هذا الحجم الضخم يمتاز بأنه حجم « متجمع » أقرب مايكون بمستطيل قليل الزوائد التى تبرز منه ، والاسافية التى تغرس فيه .

واذا كان الشكل العام فى شرق القارة يتأثر فى بعض الوحدات بتوزيع التضاريس وشكل فيعطينا نمطا شريحيا فى الصومال وموزمبيق ، أو شريحيا متعامدا على اتجاه الساحل ـ قزميا فى الغالب ـ فى غرب القارة ، أو متجمعا ولكنه صندوق رمال كالوحدات الداخلية فى غرب القارة ـ تشاد والنيجر ـ ، فان السودان ظل بمنأى عن شريحية الشرق وقزمية الغرب وفراغ الدول الداخلية فى الغرب . وله ـ الى جانب ذلك جبهة بحرية يتصل بها اتصالا مباشرا بالعالم الخارجى .. (شكل ١)

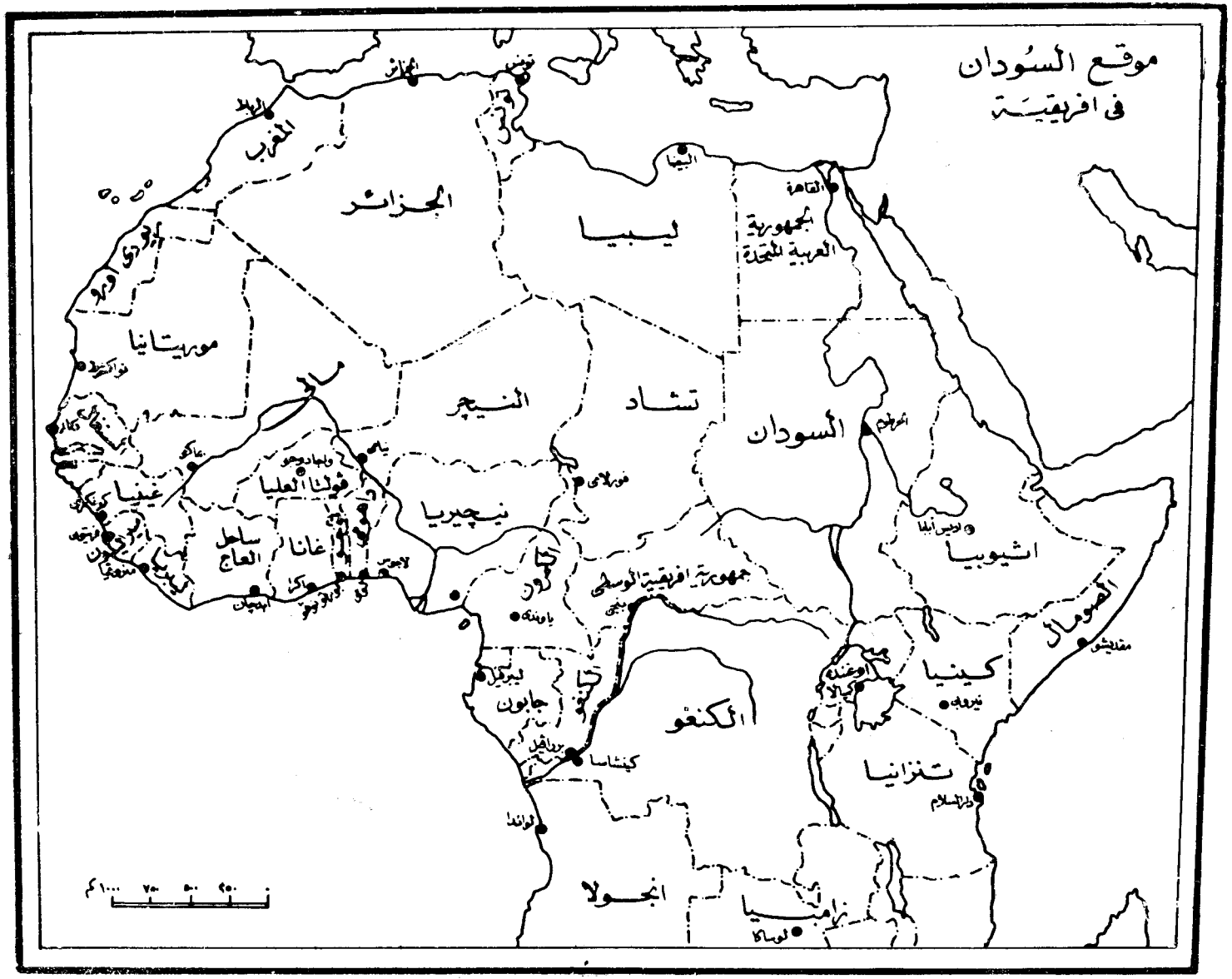
موقع السودان
فى افريقيا
الجزائر
ليبيا
الجمهورية العربية المتحدة
القاهرة
المغرب
موريتانيا
مالى
النيجر
تشاد
السودان
الخرطوم
نيجيريا
اثيوبيا
غانا
ساحل العاج
جمهورية افريقية الوسطى
الكنغو
كينيا
الصومال
تنزانيا
انجولا
زامبيا
1000 كم

شكل (١)

وسطية مع النيل :

والنظرة الأولى الى الخريطة تبين أن النيل أبرز ملامح الحياة الطبيعية فى هذا الحجم المتجمع . انه كجبال الأطلس فى الجزائر وكنهر الكونغو فى الكونغو .. كل أولئك له الصدارة شكلا فى قطره .. فهل هو كذلك موضوعا ؟

الأطلسى هو العمود الفقرى فى الجزائر . ولكنه سلسلة فقرية لاتقع فى منتصف الجسم . والكونغو ليس بالنهر الذى تقوم عليه الحياة هناك، رغم أن الدولة تحمل اسمه . أو هو يحمل اسم الشعب . هو هناك ظاهرة مكملة للحياة وليس أساسا لها . طريق مواصلات ومجال صيد ومولد كهرباء . أما النيل فهو فى أجزاء من السودان كل الحياة دون أن تعتمد عليه أجزاء أخرى .

النيل فى السودان يعطينا بهذا مرحلة وسطى من التفاعل مع النهر فى أرض النيل : ـ

١ ـ ففى مصر : النيل هو الحياة . والتشابه واضح ـ من هذه الزاوية ـ بين وادى النيل الأدنى والأجزاء الشمالية من السودان بحيث يستطيع الانسان كما يقول المؤرخ الامريكى ولسون « أن يقف واضعا احدى قدميه فى الأرض الخصبة المزروعة بينما يضع قدمه الأخرى فوق رمال الصحراء الجدباء. فاذا ما ألقى بناظريه نحو وادى النيل أحس بضجيج الحياة وزحامها ، فاذا ما التفت نحو التلال لم تقع عينه الا على فضاء واسع مقفر لاحياة فيه » ، ثم يقول عن مصر والقول هنا يكثر تطبيقه على شمال السودان « ان ذلك النهر العظيم هو الذى يمد مصر بأرضها ومائها الذى تحيا به ، ولو انقطع جريانه لجفت هذه التربة وأصبحت ترابا تذروه الرياح ، وتصبح مصر كلها واديا متسعا (جافا) لايختلف عن وديان الصحراء الكبرى فى شمال افريقيا » (٦) .

٢ ـ واذا كنا نعتبر النيل فى شمال السودان محور الحياة ، فان هذا المحور يتشعب فى منابعه وفى السودان شكلا ، ويتغير مضمونه

---

٦ ـ ولسن ، جون : الحضارة المصرية ص ٣٦ القاهرة ١٩٥١ ترجمة احمد فخرى .

الوظيفى أيضا . فابتداء من خط عرض ١٧ شمالا تقريبا تبدأ روافد النيل فى الظهور : العطبره ثم الأزرق بروافده الضخمة فى السودان واثيوبيا ، وفى النيل الأبيض بامتداده الجنوبى الذى تتراوح فيه المؤثرات الاثيوبية التى يحملها السوباط والاستوائية التى يحملها بحر الجبل والموسمية التى تحملها مجموعة بحر الغزال . هنا التزام للنهر فى أرض الجزيرة والنيل الأبيض ، وبعدعنه فى السودان الغربى . اعتماد على النهر وعلى سواه . ولكن ، لنسر مع النيل جنوبا الى أرض السدود . وفى الاسم دلالة . ان النهر أصبح عقبة بعد أن كان شريان الحياة . . والحياة تغص بالماء بعد أن كانت فى ظمأ اليه . النهر هنا عامل طرد سكانى بعد أن كان عامل جذب رئيسى . اذا فاض نأى عنه سكانه ، بينما يقبلون عليه فى الشمال . ثم يتوحد المجرى فى بحر الجبل الاوسط مع شدة الانحدار ومنطقة الانتقال من السدود الى هضبة البحيرات . وتعود الى النيل العاصمة جوبا . عاصمة جنوب السودان تقابل الملكال شمالا وواو غربا .

٣ ـ فاذا ما اتجهنا من السودان شرقا وجدنا أودية الروافد النيلية عميقة واسعة . عمق يبلغ فى النيل الأزرق أحيانا نحو الف وخمسمائة متر واتساع يتراوح فى المنابع العليا بين الخمسة والعشرة كيلو مترات . والحياة هنا ـ كما فى أوغنده ـ فى غنى بأمطارها من نهرها وان زاد الانتفاع به مع التطور الحديث هناك بحيث وصلت شبكة الكهرباء الى كينيا .

والأنهار فى اثيوبيا كانت ولاتزال ـ الى حد كبير ـ فواصل طبيعية وعقبات فى سبيل الاتصال السهل . والنيل ـ كنهر ـ فى اثيوبيا عامل طرد سكانى ومدنى بينما هو فى مصر عامل جذب رئيسى وفى السودان ـ ـ وسطية ـ بين الجذب والطرد تتدرج به الحياة والأحياء . أعانت على ذلك انحدارات الأرض من الجنوب والشرق والغرب فتكون حوض السودان . . .

فاذا كانت فى أوغنده واثيوبيا مناطق الروافد . وكانت مصر أرض المجرى الواحد . فان السودان يجمع بين ظاهرتى التعدد والوحدة . . وسطية أخرى فى الجريان مع وسطية الاستفادة والاعتماد . ومن هنا يبدو جانب من الشخصية المائية أو الهيدرولوجية للسودان من حيث علاقاتها بدول النيل ارتباطا يحمل طابعى الاعتماد على النهر والمطر .

وقد ترك هذا أثره على الصورة السياسية للسودان فتنوعت فيه البيئات وتنوع اعتمادها على النهر ومدى اهتمامها بقضاياه .

١ ـ واذا كان هذا الارتباط الكامل فى مصر بين النهر والحياة قد ترك طابعه القوى على الحياة المصرية من أقدم عصور حياتها ـ من تحويل مجرى النيل فى عهد مينا ـ وما قبل ذلك ـ الى بناء السد العالى ـ فان ابراز هذا الطابع يفتح مجالا واسعا للمقارنة بين أنماط الحياة فى أرض النيل .

ففى خلال التاريخ المصرى الطويل لم يقم فيها أى كيان سياسى بعيد عن النهر . وقد تكون هذه الظاهرة أوضح من أن تذكر ، ولكنها فى مجال المقارنة عميقة الأثر . ذلك لأن الحياة فى مصر ترتبط أولا بوجود النهر وثانيا بنظام فيضانه بحيث لا تستطيع الجهود الفردية غير المنظمة أن تقابل تحدياته . من أجل ذلك عرفت مصر من قديم وحدة الشعب والدولة . واحتاجت الحكومة فى تنفيذ مشروعاتها الى أن تجمع فى يدها سلطانا قويا وجهازا اداريا ينتشر مع ترع النهر بضبط الأمن ويرقب المحصول ويجبى الضرائب . ومن قديم ارتبط رجل الأمن بمهندس الرى بجابى الضرائب .. ثلاثية قديمة فى مصر حملت أكثر من اسم ولها انعكاساتها فى تأريخ مصر الطويل (٧) .

وقد ترتفع فاعلية هذه الثلاثية ايجابيا الى درجات عالية من الكفاءة والرقى الاجتماعى . ولنا فى هذا أن ننظر الى وصف مصر كما رآها ابن جبير الأندلسى عندما زارها فى عهد صلاح الدين الأيوبى ـ وكانت رحلته من الاسكندرية الى القاهرة الى الصعيد الى عيذاب الى البحر الاحمر فى طريقه الى الحج .. يقول « وأما اهل بلده ففى نهاية من الترفيه واتساع الاحوال ، لايلزمهم وظيف البته » (٨) . وقد تهبط الى درك حقيقى من البؤس والمجاعة . ولعل من أوفى النماذج فى هذا ما جاء فى

---

٧ ـ حمدان ، جمال : شخصية مصر ص ٥١ ـ ٥٤ القاهرة ١٩٦٧ .

٨ ـ ابن جبير الاندلسى : رحلة ابن جبير ص ١٠ القاهرة ١٩٥٥ ـ تحقيق حسين نصار. والوظيف ـ فى النص الوارد بالمتن ـ ما يقدر للانسان فى اليوم او الشهر او السنة من طعام او رزق او نحوه (انظر حاشية المحقق فى نفس الصفحة) .

كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » لتقى الدين المقريزى . وهو الكتاب الذى يدرس فيه تاريخ المجاعات فى مصر ، ويردها الى أسباب بشرية علمية ويلقى العبء الأكبر فى مسئوليتها على نظام الحكم لا على ظاهرات البيئة . والمقريزى بهذا رائد من رواد « الامكانية » التى تنفى صرامة الحتم الجغرافى (٩) .

٢ ـ فاذا ما انتقلنا الى اثيوبيا وجدنا اعتمادا رئيسيا على المطر . والمطر بطبيعته ـ لايحتاج فى انزاله الى جهاز حكم مركزى أو سلطة حكومية ـ وحديثنا فى هذا المجال لايعرض للمطر الصناعى ولا الاستقاء. فاذا أضفنا الطبيعة الجبلية فى اثيوبيا وفعل المجارى المائية فى تقطيع سطح الحبشة الى مناطق تعتبر الأخاديد النهرية فيها خطوط دفاع ، وجدنا أن جمع اثيوبيا تحت سلطة مركزية تخضع لها جميع الروؤس الحاكمة استغرق قرونا ومحاولات ، حتى أصبح حقيقة واقعة ، تعتمد على شبكة جديدة من المواصلات البرية ثم الجوية .

٣ ـ والنظام الاوغندى الاستوائى قريب فى أسبابه ونتائجه ومختلف فى بعض تفاصيله ـ عن النظام الاثيوبى : ففى منابع النيل الاستوائية قامت ممالك لاتزال بعض آثارها باقية فى نظام الحكم : الباغنده والهانيانكولى والبانيورو الخ ...

٤ ـ أما السودان ففيه أكثر من نواة حضارية . ولنرجع الى ماقبل تحديد الحدود الحالية فى أواخر القرن التاسع عشر .. بل الى ماقبل القرن التاسع عشر عندما كان التفاعل فى الأرض التى عليها السودان يرجع أكثر مايرجع الى مقومات محلية لها ارتباطاتها الحضارية الخارجية .

وسنرى ثلاث نويات حضارية رئيسية .

أ ـ نواة قامت عليها سلطنة الفونج السنارية .

ب ـ نواة قامت عليها سلطنة دارفور .

جـ ـ نواة شمالية من مجمع النيلين شمالا فى النيل النوبى .

---

٩ ـ تقى الدين احمد بن على المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة او تاريخ المجاعات فى مصر ـ انظر ص ٢٨ ـ ٣١ عن وصف مجاعة ٥٩٦هـ ـ ١٢٠٠م ودراسة المقريزى لاسباب المجاعات ـ او الغلوات كما يسميها فى ص ٤١ ـ ٦٢ تحقيق بدر الدين السباعى حمص ١٩٥٦ .

وهناك فروق فى الموقع وأوجه تشابه وتباين . ولو رسمنا مثلثا رءوس زواياه فى مناطق سنار ودارفور والنيل النوبى لكان ملتقى النيلين – الابيض والازرق – بصفة عامة فى وسط هذا المثلث .

طبيعة الحضارة فى القطاع الشمالى كثيرة الشبه فى ظروفها الطبيعية بوادى النيل الأدنى وان قطعتها الجنادل الى اوطان صغيرة يجمع بينها النيل كحبات فى عقد . وهى هيئة (أو لاند سكيب) طبيعى يساعد على قيام أكثر من دولة وأكثر من عاصمة ومركز حضارى . هل نذكر كوش ونبته والمقرة وعلوة ؟ وخطا من المراكز الاثرية ينتظم المنطقة من الشلال الأول الى مجمع النيلين تعاصرا وتتابعا (١٠) .

ونواة أخرى ازدهرت فى سلطنة الفونج حيث الحياة تفاعل بين المطر والمياه الجارية . أما سنار فيرجع اختيارها كمقر للحكم لأسباب فى مقدمتها موقعها الاقليمى الاستراتيجى فى قلب القطاع الشرقى من السودان . ويسيطر موقع المدينة على الطرق النيلية والقوافل وفيه يلتقى تجار يحملون سلع مصر والشرق الأقصى عبر سواكن ومصوع واثيوبيا (١١) . والامتداد الرئيسى للفونج كان الى الشمال الغربى على محور النيل وان حدث توسع الى الشرق والغرب والامتداد فى غير الشمال لم يبعد بها عن المجال النيلى .

بينما نواة الفور كانت كتلة جبل مرة حيث يتوفر الماء والحماية ويقول محمد بن عمر التونسى عن هذا الجبل فى رحلته ، « هو جبل يشق اقليم الفور من أوله الى آخره مع الاستقامة ، وله عدة طرق تصعد الناس منها اليه ، ولكل قطعة منه اسم خالص به غير الاسم العام . والفور يسكنون أعلاه ، ولا يألفون الوهاد . بل يرون أن ذلك أصون لهم ولأموالهم » (١٢) .... « وفى هذا الجبل أمم وعالم لايحصى كثرة وفيهم

---

١٠ – انظر هذا الموضوع :

Arkell, A. J.: A History of the Sudan, from the Earliest Times to 1821, London 1955.

والخرائط المتتابعة تاريخيا من ٣ الى ١٠ بادئة من بما قبل القرن السادس عشر قبل الميلاد الى الثامن عشر الميلادى.

١١ – الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٣١ – ٣٢ القاهرة ١٩٥٥ .

١٢ – محمد بن عمر التونسى : تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٦١ تحقيق خليل عساكر ومصطفى سعد القاهرة ١٩٦٥ .

القبيلة المعروفة بالكنجارة التى ينسب اليها سلطان دارفور . وفى هذا الجبل كهوف عديدة ، تحبس فيها أولاد الملوك وأخرى لحبس الوزراء » (١٣) والذى يعنينا ارتباط البيت الحاكم بالجبل كمنطلق ومأوى. وان كان الحديث عن أصل البيت الحاكم ومصدره لازال محل دراسة .. شأنه شأن البيت الذى أسس سلطنة الفونج (١٤) .

ولقد كان لكل من الدولتين صلة قوية بمصر . وكانت تصل الى المحروسة كل عام قوافل دارفور وسنار ويعطينا هنا التونسى أيضا صورة نابضة بالحياة عن عمق هذه الروابط وهو يتحدث عن أسرته : المنشأ فى تونس والأب فى دارفور وبعض أهله فى سنار واللقاء فى القاهرة بعد العودة من الحجاز وأداء فريضة الحج (١٥) .

وهذه الوجهة الشمالية والارتباط بوادى النيل الأدنى فى مصر كانت متكاملة مع روابط افقية أخرى بين قطاعات النطاق الرعوى جنوب الصحراء .. وروابط تمتد ما بين المحيط الأطلسى وتعبر المرتفعات الشرقية ـ وفى اثيوبيا وماوراءها جنوبا ـ الى عالم المحيط الهندى المفتوح على الشرق الأقصى . وكما كانت القوافل تسلك هذه الطرق الافقية فقد كانت تخترق الصحراء فى أكثر من مكان رابطة المنطقة كلها فى نسيج حضارى كبير اذا تباينت بيئاته محليا فقد كانت لها خصائصها العامة من الحضارة العربية الاسلامية (١٦) « شكل ٢ »

---

١٣ ـ نفس المرجع ص ١٥٣ .

١٤ ـ انظر دراسة لهذا الموضوع فى :
Crawford, G.G.S. :The Fung Kingdom of Sennar, pp. 134—142, Gloucester, 1951.
والشاطر بصيلى عبد الجليل (١٩٥٥) ص ٢٠ ـ ٣٥ .

١٥ ـ رحلة التونسى (١٩٦٥) ص ٣٢ ـ ٤٠ وهى قطعة ادبية رائعة الى جانب دلالتها الجغرافية على الروابط بين الاقطار المحيطة بالصحراء الكبرى .

١٦ ـ عن Fage, J.D.L. : An Atlas of African History maps 13, P. 17, London, 1958.
وانظر ايضا فى الروابط الافقية على امتداد النطاق السودانى ما بين المحيط الاطلسى والمحيط الهندى
Davidson, B. : Old Africa Rediscovered,Chap. *III* P.P. 61—116 dealing with "Kingdom of the Old Sudan" maps 2, P. 63 London 1961.
وللكتاب ترجمة عربية مع اضافات قام بها جمال محمد احمد بعنوان : افريقيا تحت اضواء جديدة بيروت ١٩٦١ .

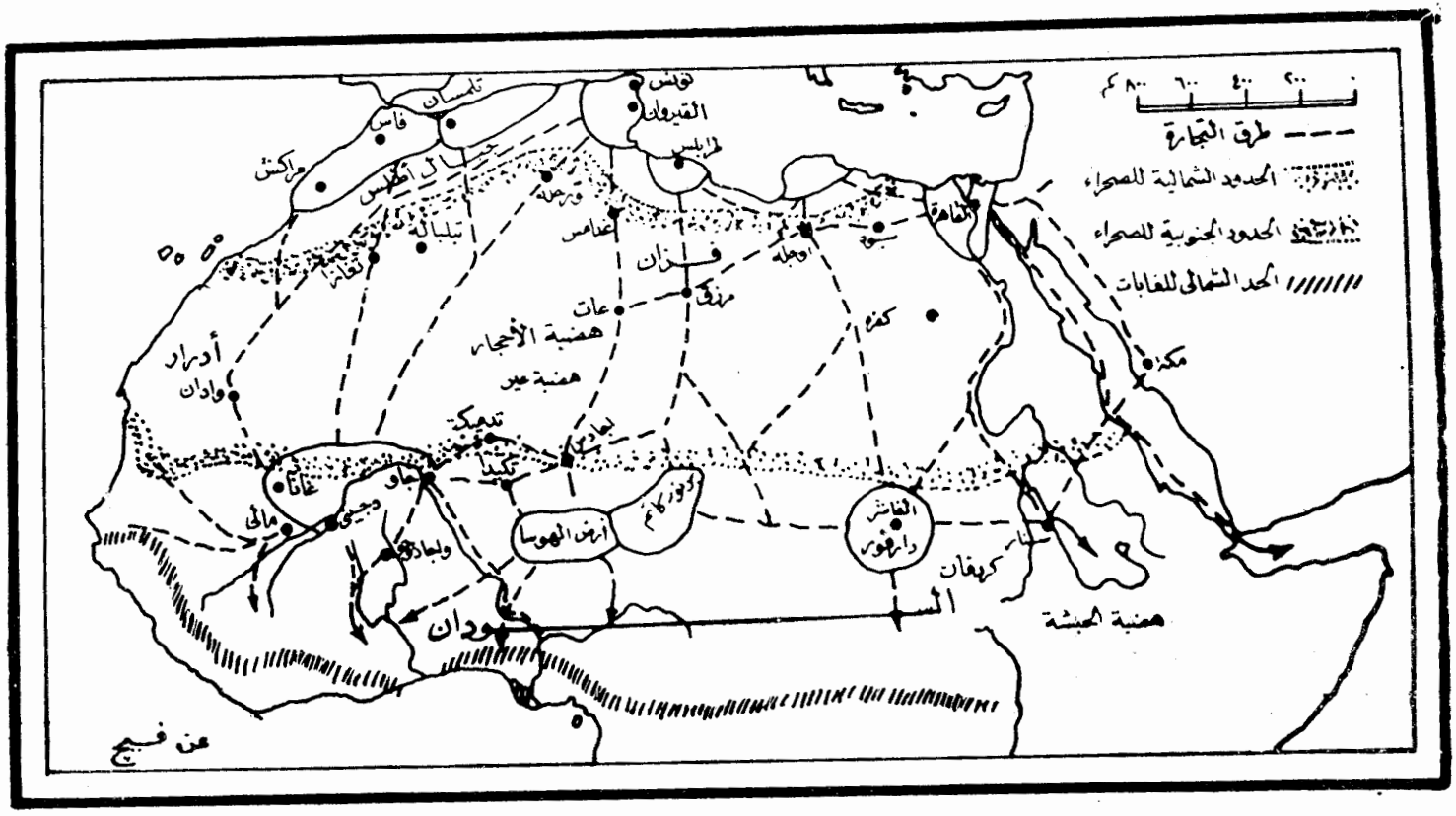

شكل (٢)

الروابط بين شمال افريقية والسودان بين القرن الخامس والثامن عشر

من أجل ذلك كان لتعدد النويات الحضارية فى السودان وزنه الحضارى حين استطاع ملتقى النيلين ـ الابيض والأزرق ـ أن يستقطب النويات الثلاث الرئيسية وماوراءها جنوبا فى وحدة سياسية واحدة ..

استطاع أن يستقطب سلطنة الفونج السنارية وسلطنة دارفور والمشيخات الشمالية ليتدعم مركز المثلث على حساب رءوس زواياه .. ثم يعود بعد هذا ليدفع اليها دماء حضارية جديدة . وهذا الدفع يعتمد ـ أكثر مايعتمد ـ على مشروعات نيلية يمثلها فى أوضح صورها التوسع فى أرض الجزيرة والصعود بالمشروعات جنوبا على النيل الأزرق . فمن حيث التأثير حدث الأرتباط بين التوسعين الزراعيين فى مصر والسودان .. بين السد العالى والروصيرص وخشم القربة . واذا كانت الجزيرة « دلتا » شمالية فى السودان تتسع فيها الأرض الزراعية واليها تتجه أكبر المشروعات ، فان هناك فى السودان « دلتا جنوبية » أخرى فى منطقة السدود ـ زراعية رعوية ـ يمكن بالتطور العلمى أن تصبح بحق الركن الحضارى الرابع ومنه تنطلق اشعاعات حضارية الى كل ما حوله من أرض السودان (١٧) . وبهذا يبدو ارتباط السودان المتزايد بمشروعات النيل وتأثير ذلك على اقتصاديات السودان ووزنه السياسى . ومع هذا فلا يزال هناك جزء كبير فى السودان يعتمد على المطر وعلى وسائل التخزين المحلية مع الحفائر والفولات والصهاريج وستظل هذه الثنائية من الاعتماد على المشروعات والمطر ولها انعكاسها على مدى الترابط بين أجزاء السودان والعلاقة بين المركزية ونظم الحكم المحلية .

وهذا التنوع يمكن أن يكون مصدر اثراء وصمام أمان ، ولازالت معادلة « القطن ـ والصمغ » لها وزنها فى الاقتصاد السودانى : تزداد العناية بجمع الصمغ مع قلة محصول القطن . فالنيل وضبطه ـ مع اهميته ـ ليس المحرك الوحيد للحياة فى السودان . ومع التنمية ستظل لثنائية « النيل ـ المطر » اثرها فى توازن الحياة السودانية . ثنائية هى بدورها وسطية جغرافية بين النظامين الأوغندى والمصرى .

---

١٧ ـ لعل اوفى ما كتب فى هذا الموضوع :
The Equatorial Nile Project and its effect in the Anglo, Egyptian Sudan, being the Report of the Jonglei Investigation Team.

المحوران الرئيسيان لتوزيع السكان فى السودان هما : المحور النيلى والمحور الرعوى أو النطاق السودانى . وحيث يلتقى المحوران نرى مركز الثقل الاقتصادى والسكانى فى السودان فى أرض الجزيرة .

ومناطق التخلخل السكانى ـ اذا استعرنا تعبير دولى ستامب ـ هى صحراء الرمال فى الشمال وصحراء الغابة فى الجنوب ويمكن أن نضيف اليها صحراء المستنقعات فى اقليم السدود .

وليس فى السودان تركيز سكانى على الاطراف وانما يمتاز بكتلة متماسكة من المعمور فى النطاق الأوسط وبخاصة فى التقاء المحورين النيلى والسودانى ومن حولها غلالة من التخلخل السكانى تبرز فيها خطوط من التكاثف الذى تتجمع حوله الحياة . واهم هذه الخطوط المحور القبلى فى أقصى الشمال والجنوب ومناطق الاستقرار فى اطراف السودان الشرقية والغربية وتصل بينها وبين نواة المعمور شبكة مواصلات آخذة فى القوة والامتداد .

هذا هو النمط العام الذى يتوزع به سكان السودان الذين ارتفع عددهم الى نحو اربعة عشر مليونا (١٩٦٨) .

ومركز السودان السكانى فى افريقيا يأتى بعد نيجيريا ومصر واثيوبيا وجنوب افريقيا والكونغو كنشاسا . واذا كان السادس فى الترتيب العام لافريقيا فهو الرابع فى افريقيا المدارية .. والى شرقه اثيوبيا والى غربه الكونغو ونيجيريا . فالسودان بموقعها تكاد أن تتوسط الوحدات المدارية الكبرى وتشترك فى حدودها مع اثنتين منها . فاذا أضفنا الى الامتداد الطبيعى الوزن السكانى ، استطعنا أن ندرك أهمية السودان « بالموقع » « والعلاقات المكانية » كما هو بالسكان والعمران .

موقع المعمور :

ولهذه النواة المعمورة فى قلب السودان مزاياها ولها أيضا مشكلاتها ..

١ ـ فمناطق التركز السكانى بطبيعتها تساعد على قيام وحدات سياسية مستقرة ـ ولنا فى هذا أن نتذكر النويات الحضارية التى استطاع مجمع النيلين أن يستقطبها ـ بالاضافة الى نويات المنتمية المنتظرة ـ بينما مناطق التناثر السكانى لاتساعد بطبيعتها على قيام وحدات سياسية كبيرة .

٢ ـ واذا نظرنا الى العلاقات الرأسية والنيلية من حيث توزيع المعمور وجدنا ثلاث نويات رئيسية أولاهما فى وادى النيل الأدنى ـ مصر ـ والثانية فى السودان الأوسط والثالثة فى منابع النيل الاستوائية . . وبين الكتل الثلاث نطاقات من التخلخل السكانى . وهذه المناطق اذا ماكانت تعبرها الحدود ، فان قلة سكانها قد تدعو الى قيام مشكلات بشأنها اذ قد تعتبرها الكتل المعمورة مجالات امتداد . وقد تدعو ـ أحيانا ـ الى اضعاف الروابط الحضارية اذا ما طالت طرق الاتصال . بل قد تدعو الى قيام حدود ادارية وسياسية . والعكس صحيح فان الحدود اذا ما كانت تمر فى أجزاء من المعمور فانها قد تفصل بين بطون وعشائر من قبيلة أو شعب واحد ، وقد يكون هذا مثارا لصور من النزاع .

٣ ـ فاذا ما انتقلنا من التأصيل النظرى الى التطبيق العملى وجدنا أن الاجزاء الشمالية من المحور النيلى فى السودان والجنوبية فى مصر تعتبر ـ جغرافيا ـ مناطق طرد سكانية ، لاتستطيع بضوابطها الجغرافية الحالية ـ أن تتحمل الا عددا محدودا من السكان ، وليس أمام الباقين الا الهجرة . والهجرة هنا تتجه أكثر ماتتجه الى الكتل المعمورة على المحور النيلى وفى النطاق السودانى الأوسط . من هنا لم يكن فى نطاق التخلخل السكانى بين مصر والسودان انطوائية تنأى به عن أحداهما أو كليهما . بل كان من عوامل الربط الحضارى بين الشمال والجنوب . والأسرة الواحدة قد يكون موطنها الأول فى ديار النوبة وابناؤها منتشرون على النيل شمالا وجنوبا وفى النطاق السودانى . ونستطيع أن نرى هجرات على مستوى القبيلة ما بين قطاع التخلخل الشمالى والسودان الأوسط . . ساعد على هذا وحدة الدين واللغة العربية كلغة أم لها مكانتها فوق اللهجات المحلية .

٤ ـ وتختلف الصورة فى بعض تفاصيلها اذا ما اتجهنا جنوبا ولنأخذ مثالا من اقليم الزاندى (١٨) . فمن طبيعة اقليم السدود فى السودان وقلب حوض الكونغو أن يدفع بسكانه من المنخفضات الى المرتفعات ـ يركبون الجبل ـ والفاصل المائى بين النيل والكونغو منطقة جذب سكانى تتطلع اليه أنظار سكان القيعان فى اقليمى السدود والكونغو ـ من أجل ذلك اجتذب الزاندى ليستوطنوه من قديم . . من قبل أن يأتى

---

١٨ ـ محمد عوض محمد : العرب والسلالات الافريقية شكل ١٤ مقابل ١٩٢ القاهرة ١٩٦٥ وفى دراسة الوصفية لوطن الزاندى انظر ص ١٨٨ ـ ١٩٠ .

مخطط الحدود ليجدوا الفاصل المائى هذا انسب مكان ليضعوا حدودهم بين السودان والكونغو وجمهورية افريقيا الوسطى شاطرة أوطان الزاندى الى ثلاثة قطاعات ، فاذا أضفنا الى ذلك أن هذا الاقليم – بموقعه الجغرافى – داخلى وله – مع ذلك – روابطه الحضارية بأرض النيل وشرق وغرب افريقيا (١٩) ، استطعنا أن ندرك جانبا من التباين بين مشكلات الحدود من حيث علاقتها بالمعمور اذا ما قارنا بين الشمال والجنوب الغربى .

٥ – وهذه الصورة يمكن أن نجدها بتكثيف اقل فى القبائل الموزعة عبر الحدود فى الجنوب والجنوب الشرقى كالأنواك فى حوض نهر أكوبو – بين السودان وأثيوبيا ، والأشولى بين السودان واوغنده .

٦ – أما فيما بين السودان واثيوبيا فيبدو تأثير مغاير لتوزيع المعمور . ذلك لأن كتلة المعمور الاثيوبى متناثرة أساسا بتوزيع الرياح وسقوط الأمطار والحياة النباتية هناك .. والرياح السطحية المطرة – الى ارتفاع ٣٠٠٠ مترا – تهب من الجنوب الغربى أما فى الكيلو متر الرابع فتهب – فى فترات المطر الغزير من الشرق الى الغرب . والذى يعنينا – فى هذا المجال – أن كتلة المعمور الاثيوبى مواجهة للسودان غير بعيدة عن كتلته .. والنطاق بينهما غنى بحياته النباتية . وحركات القبائل والعشائر فيه دائمة .. هذا فضلا عن تباين طبيعة المعمور الاثيوبى الجبلية عن المعمور السودانى السهلية وما ترتب على ذلك من تباين حضارى سنشير اليه بعد قليل ، فاذا أضفنا الى ذلك أن كلا من الدولتين من دول الاركان فى افريقيا ، استطعنا أن نتصور حساسية حركة القبائل عبر الحدود فى منطقة غنية بنباتاتها فوقها الجبل ودونها السهل .. وهذه الصورة من التفاعل توجد بدرجة محدودة فى الحدود الغربية .

فالقضية فى المعمور السودانى اذن لاتقتصر على وضعه بالنسبة الى الحدود السياسية للسودان ولكن بالنسبة الى توزيع المعمور فى الدول

---

١٩ - Seligman, C.G.: Egypt and Negro Africa, London 1934
فى ص ١٢ يدرس القيثارة عند الزاندى واوجه الشبه بينها وبين ما فى حوض الكونغو ومصر القديمة ويعود الى دراستها فى ص ٦٥ وهو فى ص ١٢ وما بعدها يعرض المناطق التى استمد منها ادلته على الروابط الحضارية بين وادى النيل جنوب الخرطوم واجزاء من شرق وجنوب افريقيا ونيجريا وما جاورها فى غرب افريقيا.

المحيطة به وطبيعة مناطق الحدود.. وهى أمور لايمكن مقابلتها فى افريقيا الجديـــدة الا بروح مـــن التعايش والتعاون روح تحترم الحد ولا تجمد الحركة .

الانحـدار السـكانى :

جانب آخر من العلاقـــة بين السودان وماحوله يبدو فى الانحـدار السكانى . فاذا ما كانت الدولـــة العادية ــ نظريا ــ تتكافأ سكانيا مع كل جارة لها . وأن الدولة تحاط بنحو أربع أو خمس من جاراتها ، فلعل من المناسب أن نعتبر الدولة التى تحيط بها من الجيران ما يعـادل أربعـة أو خمسة أمثال سكانها هى دولة سليمة من ناحيـة الحجم النسبى (٢٠) . وان كان هذا المعدل يمثل أقلية نادرة فى افريقيا ، بينما الأغلبيـــة تهبط دونه بكثير .

على هذا الأساس يمكن أن نميز فى افريقيـــا بـــين ثلاثـــة أنماط : الانحـدار الموجب والمتكافىء والسالب . ولاتدخل السـودان فى مجموعة الدول الموجبة الانحـــدار والتى تأتى فى مقدمتها نيجيريا وتليها مصر وجنوب افريقيا . كذلك لاتأتى فى المجموعة المتعادلة ، وانما تأتى فى أوائل المجموعة السالبة الانحـــدار حيث نسبة الســـكان الجيران الى الوحـدة ٦ر٥ (٢١) . ولكن هـــذه النسـبة تحتـاج منـا الى تـوقف قصير . فعدد جيران السودان ثمانية وهو رقم مرتفع ليس فوقه فى افريقيا الا الكونغو كنشاسا بتسع جارات . هذا فضلا عن مجاورة السودان لثلاث من دول الاركـان فى افريقيـا : مصر واثيوبيا والكونغو . لعل هذا هـــو الذى هبط بالانحـدار السكانى الى مجموعة الدول السالبة ، بينما ارتفع بغانا الى مجموعـــة الدول الموجبة حيث عدد جاراتها ثلاث وسكانهـــا سبعة ملايين .

دلالة هذا الانحدار اذن نسبية وهو يفسر لنا ــ فيما يفسر ــ مـع امكانيـات الســودان ــ قوة جذبـه السكانية لوافدين مـن حوله ومـن الغرب بخاصة . واذا ماكان النيـل يجرى من الجنوب الى الشمال ففى

---

٢٠ ــ جمال حمدان : افريقية الجديدة ، دراســة فى الجغرافيا السياسيـــة ص ١٠٣ القاهرة ١٩٦٦ .

٢١ ــ نفس المرجـع ص ١٠٦ .

النطاق الرعوى نهر بشرى يجرى من الغرب الى الشرق لينتهى فى الأرض المقدسة يفيض قبل موسم الحج . ويكون وهو فى مجراه « جزائر سكانية » فى أرض السودان نستطيع أن نراها فى كردفان ، وتكبر فى أرض الجزيرة حيث قرى يزيد عدد سكانها عن عشرة الآف (مايرنو كنموذج) ثم تتناثر جزائر فى الخرطوم والبطانة وكسلا وتعود الى التجمع فى بورسودان حيث تعبر البحر الى الأرض المقدسة .. وهذا النهر البشرى له أيضا رواجع بعد الرحلة تجتذبها الجزائر السكانية وهى فى طريق العودة .

هل نرى هنا مرة أخرى وسطية جغرافية للسودان بين غرب افريقيا والأرض المقدسة ؟

الأمة والحضارة

الوحدة فى التنوع :

أود أن أعود عند هذه المرحلة من الدراسة الى هارتسهورن مرة أخرى وتعريفه الجغرافيا بأنها علم التباين الأرضى ، وكيف أن الرغبة فى معرفة التباين لاتقل أهمية عن الرغبة فى معرفة أوجه الشبه بين مناطق قد تكون متنائية من حيث الموقع . ذلك لأن الدراسة الدقيقة بين أى اقليمين متشابهين أو جزئى اقليم لا يمكن أن تظهر تشابها « كاملا » بينها . فنحن حينما نتحدث عن التشابه فنحن عمليا ـ نتجاوز عن بعض الفروق . لك أن تقول هذا على موضوعات الجغرافية الطبيعية والبشرية . فالفروق موجودة بين المناطق التى نقول عنها انها متشابهة .. ومن باب أولى فى المناطق التى نقول عنها انها متباينة .. الفرق بين الاثنين فرق فى الدرجة لافى النوع . فاذا زادت الفروق قلنا بالتباين واذا قلت قلنا بالتشابه . ولو شئنا قول هارتسهورن لوجدناه « ليس التشابه نقيض التباين وانما هو مجرد تعميم يتجاهل بعض الفروق الصغيرة بينما يؤكد الفروق الكبيرة » (٢٢) .

وكما يقول هتنر (٢٣) ان العلاقات أو الروابط السببية بين الظاهرات الجغرافية نوعان : ـ

أ ـ العلاقات المتبادلة بين ظاهرات مختلفة فى مكان واحد .

ب ـ العلاقات أو الارتباطات بين ظاهرات من أماكن مختلفة .

---

٢٢ ـ هارتسهورن (١٩٥٩) ص ١٧ .
٢٣ ـ نفس المرجع ص ١٩ .

وهذا القسم الأخـــير يقتضى تحرك هذه المؤثـرات عبر البقاع أو المناطق . فالماء والهواء ... وبالطبع الحيوانات تنتقل من مكان الى آخر وتؤدى الى تفاعل متبادل بين الاماكن . فاذا ما ادخلنـــا الانســـان مسرح الأحـداث فان هذا العامل الفعـــال (الديناميكى) سيصبح أكثر أهمية .. ذلك لأنه غير متحرك فى نفســه فقط وانما يدفع غـيره من الأشـــياء الى الحركة أيضـا . ومن هنـا لاتتباين البقاع فى هيئتها فقط ولكن فيمـــا سماه ريتر وظائفها العضوية ويمكن بعدا من اللبس ــ أن تقول « علاقاتها الوظيفية » وتقصد به حركة هـــذه العوامل .

ذكرت هذا المدخل المنهجى عند دراسة الامـة والحضـــارة لأنه من الممكن فى دراسة أى قطر من الاقطار ــ مهما كان صغر مساحته ــ أن تجد جوانب من الفـروق بين أجزائه .. فالتشـــابه الكامل مـعدوم حتى بين شقى الانسان نفسه ! ! ..

ومـن هنا يبـدو الفـرق بين دراسة الظاهرة وتوجيه الظاهرة .. وهذا التوجيه يمكن أن يبرز ويؤكد جوانب التباين فى قطر من الأقطـــار تعميقا للاخاديد فى حياته ، ويستطيع أن يؤكد جوانب التشابه تاركا أوجه الاختلاف لتعايش وتكامل و «علاقات وظيفية » ..

وهـذه الفـروق أشبه ماتكون بصخور يحملها النهر فى تياره .. هى فى أول أمرهـا ذات زوايا حـادة .. خادشة .. دامية .. فـاذا ماطال سيرها فى نهر الحياة زالت زوائدها واستدارت جوانبهـا فاصبحت لينة الملمس .. فاذا ماطال السير تضاءلت ثم أرسبت على الأرض تحمل الخصب والنماء .. انها قد تحتفظ بكثير من مميزاتها الكيمائية ولكنها ــ ميكانيكيا ــ شىء جديد له وظيفة جديدة ..

وفى دراسـتنا السـودان : اذا كان الحجم والامتـداد والتجمـــع والوزن الســكانى من ركائز الحيـاة فيها ومقوماتها ، فانها تحمل تحديات على السودان أن يتغلب عليها وهـو تدفقه التاريخى .

تعدد الســلالات .. تبـــاين الميراث التاريخى .. تباين البيئـات والحـرف .. كـــل أولئك مـــن مسئوليـات الحجـم الكبير الـذى لاتنجو منه دولة كبيرة .

على المســتوى العـالمى هنـاك ثنائيـــة الثقافتـــين الفرنسيـــة والانجلوأمريكية فى كنـــدا فاذا مـا اتجهنـــا جنوبا وجـــدنا عاملا من الثنائيات والمتناقضات فى الولايـات المتحدة الامريكية : الشمال والجنوب . البيض والملونـون . البروتسـتانت والكاثوليـــك . الجمهوريـــون والديمقراطيـون . ولنتابع الرحلـة جنـوبا الى امريكـا اللاتينية حيـث

الاسبان والبرتغال والخلاسيين والزنوج والهنود الامريكيين : غابة انسانية فيها سلالات وفدت من جبهة عريضة تمتد من جزائر اليابان الى الجزائر البريطانية فضلاعمن جاءوا من امريكا الشمالية وافريقيا .. وتكفى البرازيل نموذجا .

وعلى المستوى الافريقى عندنا فى نيجيريا ثلاثية : الهوسا ـ الفولا المسلمون فى الشمال . الايبو بدياناتهم التقليدية والمسيحية فى الجنوب الغربى . مجرد نموذج لما فى النطاق السودانى وهو بدوره ـ كنطاق ـ مجرد مثال .

لا مندوحة أذن من وجود المشكلات .. واذا كنا نراها فى « العالم الجديد » فهى أكثر توفرا فى عالم له عمقه الحضارى القديم والاحساس بالذات الذى يتوفر فى قومياته ومكونات هذه القوميات فى آسيا واوربا وافريقيا ..

واذا ماكانت هذه الحقائق البشرية تتخذ ذريعة لتعميق الفروق وزرع الأحقاد فان أولى الدول بالتمزيق هى كبراها فى عالمنا المعاصر .. ولك أن تحصى عدد القوميات والسلالات والطوائف فى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية .

واذا ماكانت الفروق الحضارية مدعاة الى الفرقة فاولى اتخاذ الفروق الطبيعية ذريعة .. واذا ماكنا نعتبر الجزيرة وحدة طبيعية فلك أن

تتصور تطبيق هذه القاعدة على جزائر اليابان واندونيسيا والجزائر البريطانية !! ..

ليس من الغريب اذن أن توجد فى السودان مشكلات حضارية ، بل الغريب ألا توجد فيه مشكلات .. وأين القطر الذى يخلو منها ؟ وهل تفكير افريقيا ذات الـ ٢٦٥ مليونا هو تفكيرها وهى فى طريق النضج الاقتصادى والحضارى الذى قد يصل بسكانها الى الالف مليون ؟ .

الحضارة والمداخل :

ولننظر الآن الى السودان باعتباره مجال الالتقاء بين المحورين النيلى والسودانى على أساس مقارن :

١ ـ ففى أقطار النطاق السودانى الغربى ـ بخاصة ـ نلاحظ ثنائية لانكاد نخطؤها بين الشمال والجنوب . فالى ماوراء الصحراء يبدأ نطاق الساحل فالسودان فغانة .. وفى نطاقى الساحل والسودان تسود الحضارة العربية الاسلامية . لكن هذا منطقة

تخلخل سكانى وزهو حضارى تقليدى ثم تبدأ منطقة ارتفاع حضارى على ساحل المحيط حيث العواصم الجديدة .

ففى غرب افريقيا قمتان ـ أو قطبان ـ حضاريان : قطب اسلامى عربى شمالى وقطب زنجى جنوبى . واذا شئنا الاصطلاح الذى أطلقه البلدانيون العرب على هذا القطاع لوجدناه السودان مع تمييز بين أجزائه (٢٤) . أما المنطقة الوسطى فكانت مجال تنازع بين القطبين الشمالى والجنوبى .

ولقد كان دخول المؤثرات العربية والاسلامية من الشمال . . عبر الصحراء . فاذا كان الانبعاث الأول للاسلام من قلب الجزيرة العربية وكانت الروابط ولاتزال قائمة بين هذا القلب وكل أجزاء العالم الاسلامى ، الا أن الذى حمل رسالة الاسلام والعروبة لم يكونوا كلهم من العرب ، وان كانوا جميعا من المسلمين . وانتشار الاسلام كان أقرب مايكون الى سباق التتابع (٢٥) يحمل المشعل جيل من المسلمين من موطن ليسلمه الى جيل آخر فى موطن جديد . . من قلب الجزيرة العربية يحملونه الى مصر والمغرب . ويحمله أهل المغرب الى الصحراء ويحمله هؤلاء وهؤلاء الى غرب افريقيا . ثم يحمله أبناء الغرب الى أعماق القارة . .

من أجل ذلك لم يكن انتشار الاسلام يحمل هنا معنى السيادة أو الوفود ـ وان قامت من أجله حروب ـ ولم يكن يخضع بعد مرحلة الانطلاق الأولى لسلطة مركزية ، وانما أصبح التفاعل فيه « افريقيا » بين أبناء القارة . وكان دخوله صوب الصحراء على جبهة تمتد مع البحر الأحمر الى المحيط الأطلسى وكانت القوافل تحمل التجارة والحضارة فى اتجاهات ثلاثة رئيسية .

أ ـ اتجاهات أفقية تربط مابين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر وعالم المحيط الهندى .

ب ـ اتجاهات رأسية تربط بين النويات الحضارية المتقابلة فى نطاقى البحر المتوسط والسودان .

ج ـ اتجاهات قطرية تربط بين أركان الاطار الضخم المحيط بالصحراء الكبرى . (شكل ٢) . ونستطيع أن

---

٢٤ ـ انظر مروج الذهب للمسعودى : ٢٣٥ ـ ٢٥٣ تحت عنوان : ذكر السودان وانسابهم . القاهرة . ط. البهية ١٣٤٦هـ .

٢٥ ـ جمال حمدان (١٩٦٦) ص ٢٧٠ .

نتتبع هذه الدراسة فى تطورهاالتاريخى ومداها الجغرافى عند بوقيل (٢٦) وفى أطلس فيج (٢٧) على سبيل المثال كما كانت ـ من قبل ـ محل عناية البلدانيين والمؤرخين العرب كالقلقشندى (٢٨) وابن بطوطه (٢٩) والبكرى (٣٠) كما عنى عبد المجيد عابدين ـ أساسا ـ بالروابط الحضارية النيلية ـ بين مصر والسودان (٣١) .

كانت المؤثرات العربية تأتى اذن من مدخل رئيسى الى النطاق السودانى ، هو المدخل الشمالى . وكان هناك تفاعل بين المدخلين الشمالى والشرقى ، بين الاسلام البرى والاسلام البحرى ، الأول حمله الرعاة ورجال القوافل والثانى حمله عرب الجنوب فى رحلاتهم البحرية .. والتأثير الشمالى قاسم مشترك بين أقطار النطاق السودانى أعطى ماوراء الصحراء صبغة ثقافية مشتركة .

٢ ـ يأتى التباين بعد هذا من توزيع اليابس والماء فى افريقيا : اليابس الافريقى فى غرب القارة ينتهى حول خط عرض ٥ شمال خط الاستواء ـ بينما اليابس فى شرقها يمتد الى خط عرض ٣٥ جنوبا ـ فرق بين الشرق والغرب مقداره أربعون درجة .. فعندما أراد البرتغال الدوران حول افريقيا ، وجاءت من بعدهم شعوب أوربية أخرى ـ كان ساحل غانة من الجبهات الافريقية الرئيسية التى امتدت اليها أيدى الاوربيين استغلالا هدميا . وفيها حدث جانب ضخم من النزف البشرى والاقتصادى واليها اتجهت أنظار التجار والشركات والمبشرون . وتكونت مراكز حضارية نشط فيها المبشرون فى نشر المسيحية بينما انطوى الشمال المسلم الذى عجز الاستعمار عن اختراق درعه الصلب على شاطىء البحر المتوسط فقام حوله بعملية الالتفاف هذه .. وبدأت تتكون قوة جديدة فى الجنوب ـ تتباين دينا وحضارة عن الشمال وبينهما ـ كما سبق القول ـ الوسط الفقير مجال التنازع .

---

٢٦ ـ Bovill, E.W.: The Golden Trade of the Moors, London 1961

٢٧ ـ Fage, (1958), op. cit.

٢٨ ـ القلقشندى ، ابوالعباس احمد : صبح الاعشى ج ٥ : ٦٢ ط. دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٠ .

٢٩ ـ ابن بطوطه ، ابو عبد الله محمد : مهذب تحفة النظار فى غرائب الامصار ... ط. القاهرة ١٩٣٤ .

٣٠ ـ البكرى ، ابوعبيدالله : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . تحقيق دى سلين . ط ريس ١٩١١ . وانظر عنايته بذكر المسافات فى بلاد السودان ص ١٧٢ ـ ١٨٣ .

٣١ ـ عبد المجيد عابدين فى تحقيقه وتقصيه على كتاب المقريزى : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب . ط القاهرة ١٩٦١ .

٣ ـ الصورة فى السودان لم تكن كذلك لأن المدخل الرئيسى للسودان ظل المدخل الشمالى ـ بمدلوله الواسع بمائه ويابسه ـ منه أتت المؤثرات العربية والاسلامية ـ وقد جاءت المؤثرات الاوربية .. وكان وصول أوربا الى جنوب السودان « عبورا » من شمال السودان لا التفافا حوله ـ مع مادار من صراع حول أعالى النيل تأثر بالمداخل الشرقية والغربية ـ ولم يكن التأثير الاوربى ـ على تباين فى حامليه ـ أول خطوات مشت فوق أرض الجنوب .. وانما كانت قبلا هناك مؤثرات عربية واسلامية . بل أن الروابط الحضارية على طول النهر من منابعه الى مصبه يمكن أن نردها الى عهود الحضارة القديمة (٣٢) .

لم يكن السودان الجنوبى أذن أرضا مجهولة عندما جاء النفوذ الاوربى ، وانما أراد أن يجعله مجهولا بعد أن جاء .. وأراد يقطع روابط كان من الممكن بالتطور الطبيعى والتفاعل العالمى ان تنفى عنها تناقضات تاريخية وأن تحل محلها روابط وظيفية جديدة تجرف فى طريقها علاقات بائدة .

من هنا اختلفت طبيعة التأثير الاوربى على جنوب السودان عما حدث فى الاجزاء الجنوبية من غرب افريقيا . فغرب افريقيا كان التفاعل فيه ثنائيا بين الاوضاع التقليدية القديمة والاوربية الوافدة ، بينما فى جنوب السودان كان ثلاثيا بين الأوضاع التقليدية القديمة والحضارة العربية الاسلامية والاوربية الوافدة .

٤ ـ وبينما كانت القطاعات الشمالية فى السودان الغربى ـ مجمدة ـ الى حد بعيد ـ كانت فى السودان متفاعلة تغلى بالصراع بأعتبارها الجبهة التى تهب عليها الرياح الحضارية العاصفة وتأتى مثلا النسمات الهادئة .. كان شأن السودان الشمالى فى هذا لا يختلف عن مصر والأقطار الساحلية من المغرب : مداخل جاءت منها المؤثرات الأوربية وجبهات دار فيها الصراع بين الاستعمار والتحرر . وبعبارة أخرى : اذا كانت الاجزاء الجنوبية فى غرب افريقيا فى مهب الرياح الاوربية والاجزاء الشمالية فى بعض منها ، فقد كانت الأجزاء الشمالية من السودان فى مهب الرياح والأجزاء الجنوبية فى بعض منها .

---

٣٢ ـ سلجمان (١٩٣٤) ومحاضرة قربزر التذكارية كلها دراسة لهذا الموضوع .

٥ ـ يضاف الى هذا أن غرب افريقيا فيه النطاق الاوسط المتخلخل الذى يكاد أن يكون شقة حراما ـ أومجال صراع ـ بين القطبين ، بينما العمران بين السودان الشمالى والجنوبى متصل .. وقد يكون الوضع مختلفا لو كانت السلالات الجنوبية تعيش جنوب السدود والشمالية شماله ، بحيث تكون السدود ـ وهى منطقة التخلخل السكانى هى المميزة بين شمال وجنوب . ولكن هذه المنطقة توجد فى قلب الجنوب والالتقاء على جبهته تمتد من سفوح اثيوبيا الى السودان الغربى دون أى فاصل . والعكس صحيح . فالظروف الجغرافية هنا تشجع على الالتقاء وواقع التاريخ يصدقه .. ولو أخذنا النيل الأبيض مثالا لوجدنا قبائل من الجعليين والكواهلة .. حتى خط عرض ١٢ شمالا وتتوغل جنوبا غربه (٣٣) . ونبدأ أوطان النيليين من الدنكا شرق النهر والشلوك غربه (٣٤) . ولن نجد أى حائل طبيعى من معامل جيومورفولجيه أو تباين مناخى أونباتى يمكن أن يتخذ ذريعة لتعميق أى تميز . واستعمال لفظ « تبدأ » هنا فيه كثير من التجاوز فأن طبيعة مثل هذا اللقاء البشرى ان يكون كالانتشار الغشائى الذى تنتقل به الصفات والثقافات اندماجا وتعايشا .

هناك انتشار غشائى لا يخطئه البحث بين قلب المعمور السودانى واطرافه : تحس به فى وطن البجاة فى الشرق ـ وهى المنطقة التى سعدت بالحياة والبحث فيها ـ كما تراه فى الشمال فى منطقة النيل النوبى وفى الغرب وفى الجنوب .. ولا شك فى أن قوة قلب السودان على دفع المؤثرات الحضارية تتأثر بعوامل متعددة من نظام المواصلات وسرعة التفاعل وكثرة الأضواء الخضراء على طريقها .. وقبل هذا وفوقه بتعميق الاحساس بكيان هو واقع ومسير .

من هنا تبدو بعض آثار التوزيعات الجغرافية للمداخل الحضارية وعلاقتها بالسودان « كأمة » .

اللقاء الحضارى :

واذا ما مددنا أنظارنا وراء المداخل الشمالية ـ برية وبحرية ـ وجدنا أن السودان ـ بأغلب سكانه ـ جزء من عالم ضخم هو العالم العربى وما حوله من عالم اسلامى .

---

٣٣ ـ محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله شكل ١٢ ص ١٤٩ ـ القاهرة ١٩٥١ .

٣٤ ـ But, A.: The Nilotes of the Anglo-Egyptian Sudan and Uganda, London, (N.D.).

انظر الخريطة المرفقة بالكتاب مقارنة مع خريطة عوض (١٩٥١) .

والوطن الاسلامى ـ بمدلوله ـ يكون قارة وسطى بين قارات العالم القديم (٣٥) ويمثل الوطن العربى فيها منطقة القلب .

ومن طبيعة الوضع الجغرافى للسودان أنه كان ولايزال جبهة من جبهات العالم العربى والاسلامى .. ودول الاطراف بطبيعتها لها مشكلات تكاد أن تكون حتما تاريخيا ما لم يكن وراءها حد طبيعى صارم يبدو فى أروع صوره فى خط التقاء اليابس والماء ..

فاذا ماكنا قد تحدثنا عن وسطية السودان الجغرافية فى افريقيا ، فله هنا وضع جغرافى آخر بالنسبة الى الكتلة الكبيرة . ولنأخذ مثالا موضحا : الحد الجنوبى لجمهورية جنوب اليمن الشعبية هو بحر العرب وهو فى نفس الوقت حد عربى واسلامى ، فهنا تتطابق الحدود الثلاثة .. ولك ان تقول الأربعة اذا أضفت اليها السلالات . مثل هذا تستطيع أن تقوله عن الجبهة البحرية للسودان على البحر الأحمر .

ولكن السودان بمعموره : النواة والامتدادات والارخبيل البشرى فى الجنوب والخليج البشرى فى الشمال تجد فيه حدا عربيا وثانيا اسلاميا وثالثا سياسيا فى الجنوب . وهى ليست حدودا خطية وانما هى تمط من الانتشار الكوكبى الذى لاتستطيع فى صرامة أن تميزه بحد أو جبهة . والمنطقة التى تكاملت فيها هذه الجوانب من التطابق اللغوى والدينى تتمثل ـ أكثر ما تتمثل فى الشمال . وهى مركز الثقل الحضارى فى السودان . ولكن لننظر الى المنطلقات التى تؤثر فيها فكريا والتى تتحكم فى اللقاء الحضارى :

١ ـ هناك أولا سماحة الاسلام وكفالته لحرية العقيدة « لا اكراه فى الدين » (البقرة ٢٥٦) والنموذج المصرى واضح على سماحة التعايش بين الاسلام والمسيحية مع استبعاد التأثير الاستعمارى والايمان بوحدة قومية .

٢ ـ وهناك نظرة الاسلام الى اللون « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات ١٣٠) وآيات القرآن صريحة فى اعتبار الانسانية كلها أسرة واحدة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا» (النساء : ١)

---

٣٥ ـ Fernan, F.W. : Moslems on the March, P. 19, London, 1955

٣ ـ واذا ماهذا احترام الاسلام للانسان فهناك أيضا احترامه للأرض باعتبارها مجالا لنشاط الانسان . « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (طه ٥٥) وقوله تعالى « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوامن رزقه واليه النشور » (الملك:١٥)

هذه هى نظرة الاسلام الى الانسان والبيئة : العاملين الأساسيين فى أية دراسة جغرافية ، وأى تفاعل حضارى .

وبهذا الضوء نستطيع أن نقيم ماكتب البلدانيون العرب عن الشعوب ونظراتهم اليها . واذكر فى هذه المناسبة نصا للمسعودى فى مروج الذهب .. فهو يذكر ايمانهم بالرب الكبير ثم يقول « والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم وفيهم خطباء بلفتهم يقف الرجل منهم الزاهد فيخطب على الخلق الكثير منهم ويرغبهم فى التقرب الى بارئهم ويبعثهم على طاعته ويرهبهم من عقابه وصولته ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم »(٣٦). فالمنهج الذى اتبعوه كان الى حد بعيد موضوعيا يتقيدون فيه بالعدل الذى أمرهم به دينهم .

أسوق ذلك لأبين أنه مع النهضة التى يمر بها السودان الآن سيعاد النظر فى كثير من المفاهيم التى وفدت الينا والكتب التى بين أيدينا، وأحس أننا فى أبواب « عصر نهضة » يعاد فيه النظر فى دراستنا الانسانية فى ضوء من الحياة الجديدة .. وهذا بدوره سينعكس على المفاهيم التى تعيش بها . وهذه بدورها ستؤدى الى تكوين هيئات حضارية جديدة من التفاعل الخصب بين أبناء افريقيا على مستوى القارة وعلى مستوى الاحداث السياسية ومن هنا ستتحدد ملامح جديدة من الشخصية الافريقية تتكون من مجموع الملامح التى تبرز من التفاعل على مستوى الأقطار والأقاليم .

وقد بدت بعض خيوط هذا الغطاء الفكرى فى افريقيا .. ومن هذه الخيوط تنسج أقطارها أملا جديدا تحاول أن تنقله بالعلم والعقيدة والتعايش الى أرض الحقيقة ..

خاتمة :

قلت فى صدر هذا العرض ان دراسة الشخصية الاقليمية عمل علمى وفنى وتطبيقى فى نفس الوقت .. واذا كان تقريريا لأمر

---

٣٦ ـ المسعودى : مروج الذهب ١ : ٢٤٤ .

مضى فهو تقديرى لأمر مستقبل ،واذا كان يحمل عنصر التاريخ فليضمه الى الحاضر سعيا صاعدا . وقد حاولت أن ابرز فى هذا العرض بعض « جوانب » أو « ملامح » من شخصية السودان تستقطب الكثير من الحقائق على أساس مقارن ..وكان المحور الرئيسى الذى دار حوله البحث الوسطية الجغرافية للسودان... هل أضم اليها فى ختام هذا الحديث « الوسطية السياسية »ودور السودان فى التوفيق فى القضايا العربية ؟ انها صورة من« شخصية السودان » على الصعيد العربى لها مايعززها جغرافيا وتاريخيا .